مارتن لوثر كنغ الابن

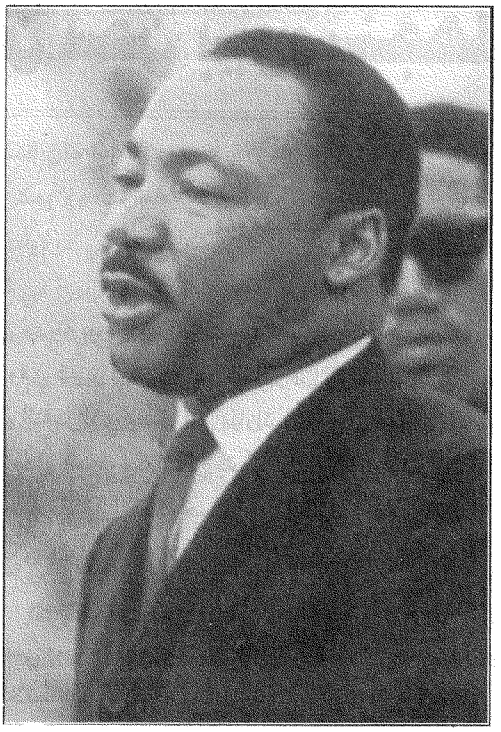

رسالة من سجن بيرمينجهام

ترجمة: أيمن حنّا حداد

يصادف الخامس عشر من كانون الثاني (يناير) من هذا العام ١٩٩٩ ذكرى مرور سبعين عاماً على ولادة مارتن لوثر كِنْغ الابن (١٩٢٩ ـ ١٩٦٨). ولأهمية هذا المناضل والناشط الأميركي الأسود العظيم، ارتأت الآداب أن تقدّم للقرّاء العرب أهمَّ ما خطّه خلال حياته القصيرة التي انتهت اغتيالاً في ٤ نيسان (ابريل) ١٩٦٨ على يد أحد [العنصريين] البيض.

كان كِنْغ رمزاً رئيسياً في حركة الحقوق المدنية، وقد اعتُقِل ٣٠ مرةً لقيادته التظاهرات والاعتصامات اللاعنفيّة من أجل تحقيق الدَّمج العرقي بين البيض والسُّود والملوّنين في الولايات المتحدة. وكان له الإسهامُ الأعظم في إعادة حسّ الكرامة الى الإنسان الافريقي الأميركي، وفي الإعلاء من قيمته الشخصية، وفي «جرّ» الكنيسة الى ميدان الصراع من أجل الحرية والمساواة، وفي تغيير الكثير من القوانين العنصرية في الولايات المتحدة. وفي عام ١٩٦٤ نال كِنْغ «جائزةَ نوبل للسَّلام» وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، فكان بذلك ثالثَ رجلٍ أسود ينالُ هذه الجائزةَ العالمية، بل كان أصغر من نالها سنّاً على الإطلاق.

والآداب إذ تنشر رسالة كِنْغ «من سجن بيرمينجهام» تؤكّد على التالي:

ـ ستكون هذه الرسالة فاتحةً لملفّات تخصّصها المجلة للحديث عن المثقف الأميركي الأسود، موقفاً ومأزقاً، وذلك كجزءٍ من اهتمامها بالمعارضة الشعبية والثقافية الأميركية للعنصرية والاضطهاد النظامي والمؤسساتي وللاستعمار الخارجي. وستضمّ الملفّات الموعودة مقابلاتٍ مع كتّاب وناشطين مثقفين أميركيين، وترجمةً لأشهر مقالاتهم، وعرضاً لسياقات النضال الأفريقي الأميركي والأميركي التقدمي الإنساني بوجه عام. وتندرج الأشعارُ الانكلوأميركية المعادية لضرب العراق منذ عام ١٩٩١، والتي ترجمها سعدي سماوي وتنشرها الآداب في هذا العدد، في هذا الإطار.

ـ لا يهدف نشر رسالة كنغ الى الحضّ على خيار اللاعنف الذي انتهجه هذا المُصْلحُ المسيحي العظيم. ففي هذا الخيار ما قد لا يتناسب وعنجهيَّةَ عدوّنا القومي «إسرائيل» ـ وإنْ كانت الانتفاضة الفلسطينية (١٩٨٧ ـ ....) لم تخلُ (في أيّامها الأولى في الأقلّ) من نواحٍ لاعنفيَّة. كما أننا لا نهدف إلى الحثّ على دمج الخطاب الديني بالخطاب النضالي، رغم أنّ القارئ سيجد في رسالة كنغ أصداء عظيمةً لهذا الدمج في خطاباتنا القومية والإسلامية. حسبُها أنّها رسالة في القوة الأخلاقية التي تستطيع ـ حين يتأتّى لها ناطقٌ باسمها ـ أن تحوّل احتجاجاً عفوياً محلياً ضيّقاً إلى حركةٍ شعبية عصيانية على المستوى القومي.

الآداب

رسالة من سجن بيرمينجهام*

بيرمينجهام (ألاباما) في ١٦ نيسان (ابريل) ١٩٩٣

أعزّائي الزملاء الكهنة:

بينما أنا محتَجَزٌ هنا في سجن مدينة بيرمينجهام، اطّلعتُ على بيانكم الأخير الذي وصفتم فيه نشاطاتي الحالية بأنها «طائشة وفي غير أوانها». من النادر أن أتوقف للردّ على النقد الموجّه إلى أعمالي وأفكاري؛ فلو سعيتُ إلى الردّ على كل النقد الذي يصل إلى طاولتي لَمَا بقي لمعاونيّ إلاّ القليلُ من الوقت لغير [الإجابة على] هذهِ المراسلات التي تصلنا على مدار اليوم، وكذلك لن يتبقّى لي أيُّ وقت لإنجاز أعمال بنّاءة. ولكنْ لمّا كنتُ أشعر أنكم رجال من ذوي النوايا الحسنة الصادقة، وأنّ نقدكم صادرٌ عن إخلاص، فإنّي أريد أن أحاول الردّ على بيانكم، وأتمنى أن يأتي ردّي في عباراتٍ حليمةٍ ومعقولة.

أعتقد أنّ عليّ أن أشير إلى سبب وجودي في بيرمينجهام، لأنكم قد تأثّرتم بوجهة النظر التي تقف ضد «قدوم الغرباء». لقد حظيتُ بشرف قيامي بمهامّ رئيسٍ لمؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية، وهي منظمةٌ تعمل في كلّ الولايات الجنوبية ولها مقرّاتٌ في أطلانطا وجورجيا، كما أنّ لدينا ما يقربُ من خمسٍ وثمانين منظمة مرتبطة بنا ومنتشرة في الجنوب، وإحدى هذه المنظمات هي الحركة المسيحية لحقوق الإنسان في ألاباما، وكثيراً ما نشترك مع المنظمات المرتبطة بنا في الموظفين والمصادر التربوية والمالية. وقبل عدة أشهر طلبتْ منّا المنظمة المرتبطة بنا في ألاباما أن نكون على استعدادٍ للمشاركة في برنامج عمل مباشر[1] لاعنفيٍّ إذا دعت الضرورةُ إلى ذلك، وحينها قبلنا الدعوةَ عن طيب خاطر، وعندما أزفت الساعةُ أوفينا بوعودنا. ولهذا، فأنا هنا [في الاباما]، ومعي مجموعة من المعاونين، لأننا قد دُعينا إلى هنا. أنا هنا لأنّ لي ارتباطاتٍ تنظيميةً هنا.

ولكنّ السبب الأهم لوجودي في بيرمينجهام هو وجود الظلم فيها. وكما ترك الأنبياء في القرن الثامن قبل الميلاد قراهم وحَمَلوا عبارتهم «هكذا قال الربُّ» أبعدَ كثيراً من حدود بلداتهم، وتماماً كما ترك بولس الرسولُ قريتَهُ طرطوسَ وحمل بشارةَ يسوع المسيح إلى أبعد بقاع العالم الإغريقي ـ الروماني، فأنا مجبرٌ على حمل بشارة الحريّة إلى ما وراء بلدتي، وعليّ ـ مثل بولس ـ أن استجيب باستمرار لنداء المقدونيين طلباً للمساعدة.

وعلاوةً على ما سلف، فأنا مُدركٌ لعلاقة التأثير المتبادل لكافة المنجمعات (communities) والولايات. أنا لا أستطيع أن أجلس مسترخياً في أطلانطا ولا أكترثَ بما يحدث في بيرمينجهام. إنّ وجود الظلم في أيّ مكان هو تهديد للعدالة في كل مكان. إننا عالقون في شبكةٍ لا فكاك منها من التبادليّة، ونحن مشدودون إلى خيط القَدَر ذاته، وأيُّ شيء يؤثّر في أيّ فردٍ مباشرةً إنّما يؤثر في الكل بصورة غير مباشرة. ولن نحتمل أن نقبل ثانيةً قطُّ بفكرة «المحرّض الخارجي» الضيقة والساذجة. إنّ أيّ شخصٍ يعيش داخل الولايات المتحدة لا يمكن أن يُعتبر غريباً في أيّ مكان داخل حدودها.

لقد استنكرتم التظاهرات الجارية في بيرمينجهام، ولكنْ يؤسفني أن أقول إنّ بيانكم قد أخفق في أن يُظهر اهتماماً مشابهاً بالظروف التي أدّت إلى قيام التظاهرات. أنا على ثقة أنْ لا أحدَ منكم يرغب في أن يستكين إلى ذلك الضرب

---

* ـ هذا ردٌّ على البيان المنشور في الصحف من قِبل ثمانيةٍ من الزملاء الكهنة في الاباما (...). وكان الرد قد كُتب في ظروف عصيبة إلى حدٍّ ما. فقد بدأتُ بكتابته على هوامش الصحيفة التي نُشر فيها البيان أثناء وجودي في السجن، ثم تابعتُ الرسالة على قصاصات من الورق زوّدني بها سجينٌ زنجيٌّ موثوق، ثم أكملتها على دفتر تركه لي المحامون بعد أن سُمح لهم أخيراً بتركه لي. ورغم أنّ النص قد ظل من دون تغيير جوهري، فإنّني أطلقتُ لنفسي العنان في استخدام امتياز المؤلفين، فنقّحتُهُ للنشر [كنغ].

١ ـ العمل المباشر (direct action): عملٌ يستهدف تحقيق غايةٍ ما على نحوٍ مباشرٍ، وبأسْرَعِ الطرق وأكثرها فعّاليةً (كالإضراب، والامتناع عن دفع الضرائب، والمقاطعة...). (المترجم)

من التحليل الاجتماعي السطحي الذي يبحث في النتائج وحدها ولا يُمسك بالأسباب التي دفعتْ إليها. إنه لمن المؤسف أن تعمّ التظاهراتُ في بيرمينجهام، ولكنّ الأكثر مدعاةً للأسف هو أن لا يَتْرك هيكلُ القوةِ البيضاءِ في المدينة لمنجمع الزنوج أيَّ خيارٍ آخر [سوى التظاهر].

في أيّ حملة لاعنفيّة هناك أربعُ خطوات أساسية:جمع الحقائق لتحديد ما إذا كان الظلمُ موجوداً؛ فالتفاوض؛ فالتطهير الذاتي؛ فالعمل المباشر. لقد مررنا في بيرمينجهام بكل هذه الخطوات، ولا يمكن أن يكون هناك مَنْ يُنْكر أنّ الظلم العِرْقي يُطبِق على هذا المنجمع؛ وربما كانت بيرمينجهام هي أكثرُ مدينةٍ في الولايات المتحدة تعرُّضاً للفَصْلِ العنصريّ، وسِجِلُّها البشعُ من القسوة معروف على نحو واسع. لقد عومل الزنوجُ في المحاكم معاملةً تتسم بالظلم الفادح، وفي بيرمينجهام قضايا عالقة تخصّ تفجير منازل وكنائس للزنوج وهي تَفُوق القضايا العالقة في أيّ مدينة أخرى في البلاد. تلك هي الحقائق القاسية والثابتة لوضع بيرمنجهام؛ وبناءً على هذه الظروف، سعى قادة الزنوج إلى التفاوض مع قادة المدينة، ولكنّ هؤلاء رفضوا بعنادٍ الانخراطَ في مفاوضاتٍ صادقة.

بعد ذلك، وفي شهر أيلول (سبتمبر) الماضي، سنحت الفرصةُ للتحدُّث مع قادة القطاع الاقتصادي في بيرمينجهام. وأثناء تلك المفاوضات، قُطعتْ بعضُ الوعود من قِبل التّجار ـ كأنْ يزيلوا اليافطات المهينة عِرْقياً عن المحلات [وهي اليافطات التي تُعْلن أنّ متجراً ما يمنع السودَ من دخولِهِ]. وبناءً على هذه الوعود وافق الأب الفاضل فريد شاتيلزورث وقادةُ «الحركة المسيحية لحقوق الإنسان في الاباما» على قرار رسميٍّ بتعليق كافة التظاهرات. ومع مرور الأسابيع والشهور، تبيّن لنا أننا ضحايا لوعود منكوثة: فاليافطات القليلة التي أُزيلتْ عادت من جديدٍ، وأمّا اليافطات الأخرى فقد بقيتْ على حالها.

وهكذا، وكما في تجاربنا الكثيرة السابقة، قُضي على آمالنا وخيّم علينا الإحباطُ العميق. ولم نملك إلا أن نبدأ بالتحضير لعمل مباشر، نكون فيه على استعداد لأن نقدّم أجسادنا ذاتَها وسائلَ لعرض قضيتنا أمام ضمير المنجمع المحلي والقومي. وإدراكاً منا لما يقتضيه ذلك من صعوبات، قرّرنا أن نَشْرع في عملية تطهير ذاتي، وبدأنا بسلسلة من الحلقات الدراسيّة عن اللاعنف، وسألنا أنفسنا مراراً: «هل نحن قادرون على تلقي الضربات دون أن نردّ»؟ و«هل نحن قادرون على احتمال محنة السجن؟» ثم قررنا أن يكون موعدُ برنامج العمل المباشر في موسم عيد الفصح، مدركين أنّ هذه هي فترة التسوّق الرئيسية في السنة، إلى جانب فترة عيد الميلاد. ولمعرفتنا أنّ برنامجاً قوياً من المقاطعة الاقتصادية سيكون هو الحصيلة الثانوية للعمل المباشر، شعرنا أنّ هذا الوقت سيكون هو الوقت الأنسب للضغط على التّجار من أجل إجراء التغييرات اللازمة.

ثمّ خطر لنا أنّ انتخابات البلدية في بيرمينجهام ستجري في شهر آذار (مارس) المُقبل، فقررنا بسرعة أن نؤجّل العمل المباشر إلى ما بعد يوم الانتخابات. وحين اكتشفنا أنّ مفوض الدفاع المدني يوجين كونر (والملقّب «بالثور») قد جمع أصواتاً كافية للمنافسة في الدورة النهائية للانتخابات، قررنا تأجيلَ العمل من جديد إلى

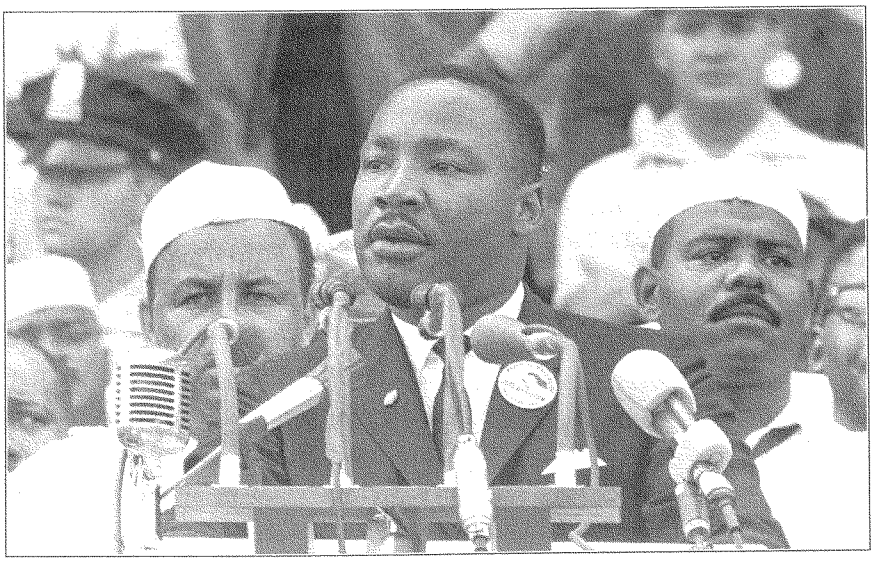

مارتن لوثر كنغ الابن: ضد العنصرية، وحرب فيتنام، ... وضد العنف ايضاً

ما بعد يوم انتخابات الدورة النهائية حتى لا تُستخدمَ التظاهراتُ [حجّةً] لحجب القضايا الأساسية. لقد انتظرنا، مثل آخرين كثيرين، أن نرى السيد كونر يُهزَم في الانتخابات، واحتملنا من أجل هذا الهدف التأجيلَ تلو التأجيل. وبعد أن ساعدْنا على إنجاز هذه الحاجة المنجمعية، شعرنا أنّ عملنا المباشر لا يمكن تأجيله أكثرَ من ذلك.

قد تتساءلون: «ولماذا العمل المباشر؟ لماذا الاعتصامات والمسيرات وإلى ما هنالك؟ أليسَ التفاوضُ طريقاً أفضل؟» أنتم على حق تماماً في دعوتكم إلى التفاوض، بل إنّ هذا هو الهدف الحقيقي للعمل المباشر. إنّ العمل المباشر اللاعنفي يسعى إلى خلق نوع من الأزمة وإلى تنمية نوعٍ من التوتر بحيث يُجبَرُ المنجمعُ الذي كان على الدوام يرفض التفاوضَ على مواجهة القضية. إنّ العمل المباشر يسعى إلى هذا الأمر كي يثير القضيةَ بصورةٍ دراميّةٍ، بحيث لا يمكن تجاهلُها بعد ذلك. إنّ دعوتي إلى خلق التوتر كجزء من عملِ المقاومين اللاعنفيين قد تبدو مروِّعة، ولكن عليّ أن أعترف بأنني لا أخشى كلمةَ «التوتر». لقد عارضتُ جاداً التوتُّر العنفيّ، ولكنّ هناك نوعاً من التوتر اللاعنفيّ البنّاء، وهو ضروري للنموّ. وكما شعر سقراط بأنّ من الضروري خلق توترٍ في العقل حتى يتمكن الأفراد من الارتقاء من عبودية الأساطير وأنصاف الحقائق إلى عالَم التحليل الخلاّق والتقييم الموضوعي المتحرر من الأغلال، فإنّ علينا نحن أن نرى الحاجة إلى المهماز اللاعنفي من أجل أن نخلق في المجتمع ذلك النوعَ من التوتر الذي سوف يساعد الناسَ على الارتقاء من أعماق العنصرية والتحيّز المظلمة إلى مراقي التفهم والإخاء العظيمة.

إنّ الهدف من برنامجنا للعمل المباشر هو خلقُ وضعٍ مشحونٍ بالتأزُّم، يُحتِّم فتحَ باب المفاوضات. ولهذا أتفق معكم في دعوتكم إلى المفاوضات؛ فلطالما كان جنوبُنا الحبيب عالقاً في الجهود المأساوية للعيش في حوار ذاتي monologue بدلاً من الحوار المتبادل dialogue.

لقد كانت إحدى النقاط الأساسية في بيانكم هي أنّ العمل الذي قمتُ به أنا وزملائي في بيرمينجهام كان في غير وقته، وتساءل البعض: «لِمَ لَمْ تمنحوا الإدارة الجديدة للمدينة وقتاً لكي تتصرّف؟» إنّ الإجابة الوحيدة التي أستطيع إعطاءَها عن هذا التساؤل هو أنه من الواجب حثّ الإدارة الجديدة بمقدارٍ حثّنا للإدارة السابقة، **وقبل** أن تقوم بالتصرُّف؛ إذ إننا سنكون مخطئين بصورة محزنةٍ إن نحنُ شعرنا أنّ انتخاب البرت بوتويل رئيساً للبلدية سوف يجلب السُّعد لبيرمينجهام. صحيحٌ أنّ السيد بوتويل ألطف بكثير من السيد كونر، إلاّ أنهما كليهما من مؤيِّدي الفصل العنصري وملتزمان بالإبقاء على الوضع الراهن. إنّي لآمَلُ أن يكون السيد بوتويل من العقلانية بحيث يرى عَبَثَ المقاومة الكبيرة للاندماج العرقي، ولكنه لن يرى ذلك دون ضغوطٍ مناصري الحقوق المدنية. يا أصدقائي، يجب أن أقول لكم إننا لم نُحقِّقْ مكسباً واحداً من الحقوق المدنية بدون ضغطٍ قانونيٍ ولاعنفيٍ عازم. ومن المؤسف أنه من الحقائق التاريخية أن المجموعات المُتمتّعة بالامتيازات نادراً ما تتنازل عن امتيازاتها طوعاً؛ فقد يرى الأفراد النورَ الأخلاقي ويتخلّون طوعاً عن وضعهم المُنافي للعدل؛ ولكنّ الجماعات ـ على نحو ما ذكرّنا رينولد نيبر ـ تميل إلى أن تكون أكثر لاأخلاقيةً من الأفراد.

إننا نعرف من خلال تجاربنا المؤلمة أنّ المضطهِدَ لا يعطي الحريّة طوعاً، بل على المضطَهَد أن يُطالب بها. وبصراحة، أنا لم أنخرط حتى الآن في حملة عملٍ مباشر «في الوقت الملائم»، ولكنّ ذلك هو فقط رأيُ أولئك الذين لم يُعانوا مرضَ الفصل العنصري بإفراط. ومنذ سنوات وأنا أسمع كلمة «انتظِرْ» وهي كلمة ترنّ في أذنٍ كلِّ زنجي بألفةٍ قارصة. إنّ كلمة «انتظِرْ» هذه كانت دائماً تقريباً تعني: «أبداً». إنّ علينا أن نرى، كما قال أحدُ خبرائنا القانونيين الممتازين، «أنّ تأخُّر العدل طويلاً إنّما هو إنكارٌ للعدل».

لقد انتظرنا ما يزيد عن ٣٤٠ سنةً من أجل الحصول على حقوقنا الدستورية وحقوقنا التي منحنا إيّاها الربّ. إنّ الأمم في آسيا وأفريقيا تتحرك بسرعة الطائرة النفّاثة نحو الاستقلال السياسي، غير أنّنا نحن ما نزال نزحف بسرعة الحصان والعربة من أجل أن نشرب فنجاناً من القهوة على طاولة في مطعم[1]! ربما كان من السهل على أولئك الذين لم يشعروا بوخزِ نبال الفصل العنصري أن يقولوا: «انتظِرْ». ولكنْ حين تكون قد رأيتَ الرعاعَ الأشرار يُعْدمون آباءك وأمّهاتك متى شاءوا ومن دون محاكمةٍ قانونية، ويُغرقون إخوتَكَ وأخواتك من

---

١ ـ من المعروف أنّ السود والملوّنين في فترة الفصل العنصري في أمريكا كانوا يُمنَعُون من دخول المطاعم المخصّصة للبيض. (م)

أجل نزوة؛ وحين تكون قد رأيتَ رجال شرطةٍ مملوئين بالحقد يَشْتمون ويَرْكلون وقد يَقْتلون إخوتَكَ وأخواتَكَ السود؛ وحين ترى الأغلبية الساحقة من إخوتك الزنوج العشرين مليوناً يختنقون في أقفاصِ فقرٍ مُحكمةٍ وسطَ مجتمعٍ وفرة؛ وحين تجد أنّ لسانك قد التوى فجأة وأنّك تتلعثم بالكلام إذ تريد أن تشرح لطفلتك ذاتِ السنوات الستّ لِمَ لا تستطيع أن تذهب إلى الحديقة الترفيهية التي أُعلن عنها للتوّ في التلفزيون، وحين ترى الدموعَ وقد فاضت من عينيها عندما أُعلِمَتْ أنّ مدينة الملاهي مغلقة في وجه الأطفال الملوّنين، وترى غيومَ الدونيّة المشؤومة وقد أخذَت تتشكّل في سمائها الذهنية الصغيرة وترى أنها قد راحت تشوّه شخصيّتها بأن أخذت تنمّي مرارةً لاواعيةً تجاه الناس البيض؛ وحين يكون عليك أن تختلق جواباً لطفلك ذي السنوات الخمس حين يسأل: «بابا، لماذا يقوم الناس البيضُ بمعاملة الناس الملونين بهذه النذالة؟»؛ وحين تقود سيارتك عبر البلاد وتجد أنه من المحتم عليك أن تنام الليلة تلو الليلة في الزوايا غير المريحة من سيارتك لأنّ ليس ثمة فندق واحدٌ يَقْبلك؛ وحين تُهان يوماً بعد يوم باليافطات المُناكدة التي تقول: «بيض» و«ملونون»؛ وحين يُصبح اسمُك الأول «زنجي»[1] واسمُك الأوسط «ولد» (أيّاً كان عمرك) واسمُك الأخير «جون»[2] وحين لا يُطلق على زوجتك وأمك لقبُ «سيدة» احتراماً؛ وحين تُنهَك في النهار وتؤرَّق في الليل بحقيقة أنّك زنجيٌّ وتعيش دوماً بتوجُّسٍ ولا تعلم قطُّ ما عليك أن تتوقعه في المستقبل وتُبتلى بمخاوف داخلية واستياءات خارجية؛ وحين تُصارِع إلى الأبد شعوراً مُحبِطاً بأنّك «نكرة» ـ عندها ستفهم لماذا نجد أنّ من الصعب علينا الانتظار. فقد تأتي ساعةٌ يطفح فيها الكَيْل وتفيض كأسُ الاحتمال، ولا يعود الرجال مستعدين للانزلاق في هاوية اليأس. أنا آمَلُ، يا سادة، أن يكون بمقدوركم أن تتفهّموا نفاذ صبرنا المشروعَ والمحتومَ.

لقد عبّرتم عن مقدار كبير من القلق بسبب إقبالنا على خرق القوانين، وهذا قلق مشروع بالتأكيد. فلمّا كنّا نحن بدورنا نحثّ الناسَ بكل اجتهاد على طاعة قرار المحكمة العليا الصادر في العام ١٩٥٤ والذي يحظر الفصلَ العنصريَّ في المدارس العامة، فقد يبدو خرقُنا للقانون لأوّل وهلةٍ تناقضاً من قبلنا. وقد يتساءل المرء كذلك: «كيف لك أن تناصر خرقَ بعض القوانين، والامتثالَ لقوانين أُخرى»؟ وتكمُن الإجابة عن ذلك في أنّ هناك نوعين من القوانين: ظالماً وعادلاً. وسأكون أوّلَ من يناصر الامتثال للقوانين العادلة؛ فليس على المرء مسؤوليةٌ قانونيةٌ فحسب في الامتثال للقوانين العادلة، بل مسؤولية أخلاقية أيضاً. ولكنّ على المرء، في مقابل ذلك، مسؤوليةً أخلاقية في أن يعصى القوانين الظالمة؛ وهنا أتفق مع القديس أغوسطين حين قال: «القانون الظالم ليس بقانونٍ على الإطلاق».

والآن، ما هو الفرق بين هذين النوعين؟ وكيف يستطيع المرء أن يقرر ما إذا كان قانونٌ مّا عادلاً أم ظالماً؟ إنّ القانون العادل هو دستورٌ مِنْ صنع الشر، وينسجم مع القانون الأخلاقي أو قانون الله. والقانون الظالم هو دستور يخرج عن الانسجام مع القانون الأخلاقي. ولنُعبِّرْ عن الأمر بكلمات القديس توما الأكويني: القانون الظالم هو قانون بشريٌّ لا أساس له في القانون السرمدي والقانون الطبيعي. وأيّ قانون يرتقي بالشخصية الانسانية هو قانون عادل، وأيّ قانون يحطّ الشخصيةَ الإنسانيةَ هو قانون ظالم. إنّ كل تشريعات الفصل العنصري ظالمة لأنّ الفصل العنصري يشوّه الروحَ ويؤذي الشخصية؛ إنه يعطي القائمَ على الفصل شعوراً زائفاً بالتفوق، ويعطي المفصولَ عنصرياً شعوراً زائفاً بالدونية. إنّ الفصل العنصري، وأستخدم هنا مصطلحات الفيلسوف اليهودي مارتين بوبر، يستبدل علاقة «الأنا ـ الآخر» بعلاقة «الأنا ـ الشيء» وينتهي إلى حطّ مرتبة الأشخاص إلى مرتبة الأشياء. وهكذا، فالفصل العنصري ليس فاسداً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً فحسب، بل هو أثم وخطأ أخلاقي أيضاً. لقد قال بول تيليتش إنّ الاثم هو انفصال. أوَليس الفصلُ العنصري تعبيراً وجودياً عن الانفصال المأساوي للإنسان وغربته البشعة وإثمه الفظيع؟ لهذا فإنّ بإمكاني أن أحثّ الرجال على الامتثال لقرار المحكمة العليا الصادر في العالم ١٩٥٤ لأنه سليم أخلاقياً؛ وبإمكاني أن أحثّهم على عصيان أوامر الفصل العنصري لأنها فاسدة أخلاقياً.

---

١ ـ «Nigger» وتعني «زنجي» تحمل في اللغة الإنجليزية معاني من الازدراء والتحقير، ولكنّ الكلمة العربية لا تعني هذا المضمون إذ إنها تدلّ على تصنيف عرقي محايد؛ والرديف العربي لكلمة «Nigger» هي كلمة «عبد». (م)

٢ ـ «John» (جون) اسم انجليزي شائع، ولكنّ مناداة أفرادِ فئةٍ عرقيةٍ معينة باسمٍ واحدٍ دائماً تدلّ في الثقافة الغربية إجمالاً على الاستخفاف. وهذا يشبه في العربية مناداة الأفراد السود جميعاً بلقب «أبو سمره» من باب الاستهانة. (م)

دعونا نستعرضْ مثالاً أكثر تحديداً على القوانين العادلة والقوانين الظالمة. إنّ القانون الظالم هو دستور تقوم بموجبه مجموعةٌ تشكّل أغلبيّة عدديةً أو سلطويةً بإجبار مجموعة تشكل أقليّة على الامتثال [للقانون]، بينما لا يُلزِم هذا القانونُ الأغلبيةَ ذاتها؛ وهذا تمييز مقونن. وبالمعيار ذاته فإنّ القانون العادل هو دستورٌ تقوم بموجبه الأغلبيةُ بإجبار الأقلية على اتّباعه، وتكون الأغلبيةُ ذاتها مستعدةً لاتّباعه أيضاً؛ وهذا تماثلٌ مقونن.

دعوني أُعطِ توضيحاً آخر. إنّ قانوناً مّا يكون ظالماً إذا فُرِض على أقليةٍ مّا ولم يكن لها دورٌ في سنّه أو استنباطه نتيجةً لحرمانها حقّ التصويت. فمن يستطيع القول إنّ مُشرِّع الاباما الذي أعدّ قوانين الفصل العنصري لتلك الولاية كان قد انتُخب ديموقراطياً؟ ففي كل الاباما استُخدِمتْ كافةُ الأساليب الملتوية لمنع الزنوج من أن يصبحوا ناخبين مُسجّلين، وهناك بعض المحافظات ليس فيها زنجيٌّ واحدٌ مسجّل رغم أنّ الزنوج يشكلون فيها أكثريةً عددية سكانية. فهل من الممكن اعتبارُ أيّ قانون سُنّ تحت هذه الظروف بأنّه مُنشَأٌ ديموقراطياً؟

أحياناً يكون القانون عادلاً في ظاهره وظالماً في تطبيقه. فعلى سبيل المثال اعتُقِلتُ هنا بتهمة التظاهر من دون الحصول على ترخيص رسمي. والحق أنْ ليس هناك أيُّ خطإٍ في أن تكون لدينا أنظمة تقتضي الحصول على ترخيص من أجل القيام بتظاهرة، ولكنّ نظاماً كهذا يصبح ظالماً عندما يُستخدَم للإبقاء على الفصل العنصري ولحرمان المواطنين حقَّهم المكتسب في التجمُّع السلمي والاحتجاج بمقتضى التعديل الأول من الدستور (First-Amendment).

أتمنّى أن تكونوا قادرين على رؤية التمييز الذي أُحاول أن أُشير إليه. أنا لا أدعو بأيّ حالٍ من الأحوال إلى التملُّص من القوانين وتحدِّيها، كما قد يفعل مُناصرو الفصل العنصري المسعورون؛ فذلك سوف يؤدّي إلى الفوضى. على المرء الذي يكسر قانوناً ظالماً أن يفعل ذلك على الملإ، وبمحبّةٍ، وأن يكون مستعداً لتقبُّل العقوبة. إنني أُؤكد أنّ الشخص الذي يكسر قانوناً ألهمَه ضميرُهُ أنْ يَعدّهُ قانوناً ظالماً، ثم يكون مستعدّاً لتقبُّل عقوبة السجن لكي يستنهض ضميرَ المنجمع على ظلم ذلك القانون، هذا الشخص في الواقع إنما يُعبّرِ عن أقصى الاحترام للقانون.

وبالطبع، ليس هناك أيُّ جديد في هذا النوع من العصيان المدني. فلقد ظهر في أرفع أوجهه في رفض شَدْرَكْ وميشَكْ وعبد نجو الامتثال لقوانين نبوخذ نصّر[1]، على أساس أنّ قانوناً أخلاقياً أعلى كان في خطر. كما طُبِّق بجلال من قِبل المسيحيين الأوائل، الذين كانوا يؤْثِرون مواجهةَ الأسود الجائعة والعذاب الأليم الناتج من تهشيم الأعضاء على أن يَخْضعوا لقوانين ظالمة محدَّدة سنّتها الإمبراطوريةُ الرومانية. إنّ الحرية الأكاديمية إنما هي واقع الآن، إلى حدٍّ ما، بفضل تطبيق سقراط للعصيان المدني. وفي أمتنا نحن، «مَثَّلتْ واقعةُ الشاي» في بوسطن[2] فعلاً هائلاً من أفعال العصيان المدني.

يجب ألاّ ننسى أبداً أنّ كلّ ما فعله أدولف هتلر في ألمانيا كان «قانونياً»، وأنّ كلّ ما فعله الثوّار الهنغاريون في هنغاريا كان «غير قانوني». لقد كان من «غير القانوني» أن تساعد أو أن تواسي يهودياً في ألمانيا الهتلريّة. ومع هذا فأنا على يقين من أنني لو عشتُ في ألمانيا في ذلك الوقت، لكنتُ قد ساعدتُ وواسيتُ إخوتي اليهود. ولو أنني كنتُ أعيشُ اليومَ في بلدٍ شيوعيٍّ حيث تُقمع مبادئُ عزيزةٌ على الإيمان المسيحي لكنتُ قد دعوتُ على الملإ إلى عصيانِ القوانين المعادية للدين في ذلك البلد.

عليّ أن أعترف لكم باعترافين، يا إخوتي المسيحيين واليهود. أولاً، عليّ أن أعترف بأنّ ظني قد خاب بشدّةٍ في المعتدلين البيض خلال السنوات القليلة السابقة، وتوصلتُ تقريباً إلى الاستنتاج المؤسف بأنّ العقبة الكبرى أمام الزنوج في طريق تقدمهم نحو الحرية ليست «مجلس المواطنين البيض» أو أعضاء جمعية «كوكلوكس

---

١ ـ وردتْ هذه القصةُ في نبوءة دانيال، الأصحاح الأول والثاني ـ العهد القديم. (م)

٢ ـ انطلقت الثورةُ الأميركية على الحكم البريطاني بسبب رفض البريطانيين تخصيصَ مقاعد في البرلمان للأميركيين، ورفع الأميركيون شعارَ «لا ضرائب دون تمثيل». وفي بوسطن قامت مجموعةٌ من الثوّار بالصعود إلى سفينة إنجليزية محمّلةٍ بصناديق شاي، وَرَمَتْ محتوياتِ السفينة إلى البحر احتجاجاً على ضريبة الشاي. ومنذ ذلك الوقت أصبحتْ هذه الواقعة تدعى The Boston Tea Party، وتعني حرفياً: «حفلة الشاي في بوسطن». (م)

الإيْجَة محمد: بزعامته كوّنت «أمّة الإسلام» مدارس ومزارع وشركات، يرأسها ويديرها سودٌ

كلان» [العنصرية البيضاء]، بل المعتدل الأبيض. فهذا الأخير يلتزم «النظامَ» أكثر من التزامه العدلَ؛ ويُفضّل السلام السّلبي (الذي يتمثّل بغياب التوتر) على السلام الإيجابي (الذي يتمثّل بوجود العدل)؛ ويقول باستمرار: «أنا أتفق معك في الهدف الذي تسعى إليه ولكنني لا أستطيع الموافقةَ على أساليبك في العمل المباشر»؛ ويعتقد ـ وبطريقةٍ أبويّة [فوقية] ـ أنّ بإمكانه أن يُعِدّ البرنامجَ الزمنيَّ لتحرر رجل آخر؛ ويَتَبنّى فكرةً أسطورية عن الوقت؛ ويَنْصح الزنوجَ دائماً بانتظار «موسم أنسب». إنّ الفهم السطحي من قِبل أصحاب النوايا الحسنة لَهُو أشدُّ إحباطاً من سوء الفهم المُطلق من قِبل أصحاب النوايا السيئة؛ وإنّ القبولَ الفاتر لهو أشدُّ إرباكاً من الرفض الصُّراح!

لقد كنت آمَلُ أن يدرك المعتدلُ الأبيض أنّ القانون والنظام وُجدا من أجل إقامة العدل، وأنهما عندما يُخفقان في تحقيق هذا الغرض يصبحان سدوداً خطرةً تحجز تدفُّقَ التقدم الاجتماعي. وكنتُ آمل أن يدرك المعتدلُ الأبيض أنّ التوتر الحالي في الجنوب ما هو إلاّ مرحلةٌ ضرورية في التحوُّل من السّلم السلبي البغيض، حيثُ يَتَقبّل الزنجيُّ مأزقه الظالم بسلبيّةٍ، إلى السلام الإيجابي الدائم [الثابت] الذي يَحْترم بموجبه كلُّ الرجال كرامةَ الشخصية الإنسانية وقيمتها. والواقع أننا، نحن المنخرطين في العمل اللاعنفي المباشر، لسنا مَنْ سبَّب هذا التوتر، بل حَسْبُنا أن نُخْرِجَ إلى السطح التوترَ المخفيَّ الذي ما زالَ حيّاً. نحن نبرزه إلى العلن، حيث تُمكن رؤيتُه ومعالجتُه. ومثلَ الخرّاج الذي لا يمكن علاجُهُ مادام مغطّى، بل يجب الكشفُ عنه بكل بشاعته [تعريضه] لعلاج النور والهواء الطبيعي، فإنّ على الظلم أن يُعرَّض، بكل التوتر الذي يَخْلقه الكشفُ عنه، لنور الضمير الإنساني ولهواء الرأي العام القومي قبل أن نتمكن من معالجته.

لقد زعمتم في بيانكم أنّ أعمالنا، وإنْ كانت سلميةً، يجب أن تُدانَ لأنها تؤدي إلى العنف. ولكنْ أهذا زعمٌ منطقي؟ أليس ذلك أشبهَ بإدانةِ رجلٍ تعرّض للسرقة بحجّة أنّ امتلاكه للمال أدّى إلى فعل السرقة الشرير؟ أليس ذلك أشبهَ بإدانة سقراط بحجّة أنّ التزامه الثابت بالحقيقة وأبحاثَه الفلسفية أدت إلى ما قامت به العامّةُ المُضَلّلَة حين أجبروه على تجرُّع السم؟ أليس ذلك أشبهَ بإدانة يسوع لأنّ ضميره الإلهي الفريد واستمرارَهُ في تكريس نفسه لمشيئة الربّ قد أدّيا إلى فعل الصّلب الشرير؟ علينا أن ندرك أنه من الخطإ أن يُحَثّ الفرد على التوقُّف عن جهوده لاكتساب حقوقه الدستورية الأساسية لأنّ طلبه قد يؤدِّي إلى العنف؛ وهذا ما أكدته المحكمةُ الفيدراليةُ باستمرار. بل على المجتمع أن يَحْمي المسروق، وأن يُعاقِب السارقَ!

وكنتُ آمل أيضاً أن يَرْفض المعتدلُ الأبيضُ الخرافةَ التي تختصّ بالزمنِ وعلاقتِهِ بالكفاح من أجل الحرية. لقد تسلّمتُ للتوّ رسالةً من أخٍ أبيض من تكساس، وكتب فيها: «كلُّ المسيحيين يعلمون أنّ الناس الملوَّنين سوف يَحْصلون في نهاية المطاف على حقوق المساواة [بالآخرين]، ولكنْ ربما كنتَ أنتَ في عجلةٍ دينيّة شديدة، فلقد تطلّب الأمرُ من المسيحية ألفيْ عام لكي تحقِّق ما لديها الآن؛ وإنّ تعاليم المسيح تستغرق وقتاً للوصول إلى الأرض». إنّ موقفاً كهذا ينشأ عن فهم للزمن خاطئٍ بصورة مأساوية، وعن مفهوم لاعقلاني غريبٍ يرى أنّ هناك شيئاً ما في صميم تيار الزمن قادراً في حدّ ذاته على شفاء كلّ العلل حتماً. والحقّ أنّ الزمن هو شيء محايد في ذاته، ويمكن استخدامُه بشكل بنّاء أو هدّام؛ وأنا أزداد قناعةً بأنّ ذوي النوايا السيئة قد استخدموا الزمن بفعّالية تفوق كثيراً فعّالية ذوي النوايا الحسنة. وسوف يكون علينا أن نتحسر في هذا الجيل، لا بسبب كلمات الأشرارِ وأفعالهم المُفْعَمة بالكره فحسب، بل بسبب صمتِ الأخيار المُفزِع أيضاً. إنّ التقدّم الإنساني لا يَكرُّ على دواليب الحتمية أبداً، بل يأتي من خلال الجهود المتواصلة التي يبذلها رجالٌ مستعدون أن يُشاركوا الربَّ في العمل؛ وبغير هذا الجهد الشاق يصبح الزمنُ ذاتُه حليفاً لقوى الركود الاجتماعي. إنّ علينا أن نستخدم الزمن بإبداعيّة، مدركين

أنّ الزمن مناسبٌ دائماً لفعل الشيء الصحيح. والآن هو الوقت المناسب لتحقيق وعد الديموقراطية ولتحويل مراثينا القوميّة الوشيكة إلى مزامير خلاّقة من الأخوّة. الآن هو الوقت المناسب للارتقاء بسياساتنا القومية من وَعَث[1] الظلم العِرقي إلى صخرة الكرامة الإنسانية الصُّلبة.

لقد رميْتُم نشاطاتنا في بيرمينجهام بالتطرّف. وفي البداية أُصبتُ بخيبة أملٍ حين وجدتُ أنّ زملائي الكهنة يَعْتبرون نشاطاتي اللاعنفية كنشاطات المتطرفين، وبدأتُ أرى نفسي في الوسط، ما بين قوتين متناقضتين في منجمع الزنوج. القوة الأولى هي قوة اللامُبالاة، وتتكون في جزء منها من الزنوج الذين استُنزف احترامُهُم لذواتهم وشعورُهم «بقيمتهم الشخصيّة» ("somebodiness") نتيجةً للسنوات الطويلة من الاضطهاد بحيث تأقلموا مع الفصل العنصري؛ وتتكون [هذه القوة] في جزء آخر من قلّة من الزنوج المنتمين إلى الطبقة الوسطى الذين لم يعودوا يستجيبون لمشاكل الجماهير بسبب نيلهم درجةً معيّنة من التحصيل الأكاديمي والأمان الاقتصادي، ولأنهم أصبحوا مستفيدين ـ بطريقة أو أخرى ـ من الفصل العنصري. وأما القوة الأخرى فهي قوة المرارة والكراهية، وهي قوة تقترب من الدعوة إلى العنف بصورة محفوفةٍ بالمخاطر، وقد عَبَّرتْ عنها مجموعاتٌ قومية متنوعة من السود، وهي تنمو في طول البلاد وعرضها، وأكبرها وأكثرها شهرةً حركةُ إلايْجَهْ محمّد الإسلامية. وإذ تتغذّى هذه الحركةُ من إحباط الزنوج بسبب التمييز العرقي المستمر، فقد تكونتْ من أناسٍ فقدوا إيمانهم بأميركا وتبرّأوا تماماً من مسيحيتهم وتوصلوا إلى أنّ الرجل الأبيض «شيطان» لا سبيل إلى إصلاحه.

لقد حاولتُ أن أقف بين هاتين القوتين، قائلاً إننا لا نريد أن نحاكي دعاةَ «الامتناع عن الفعل» "do-nothingism" اللامُبالين، ولا أن نحاكي كراهية القوميين السود ويأسهم. فثمة طريقٌ أفضل بكثير هي طريق المحبة والاحتجاج اللاعنفي. وأنا أشكر الربّ لأنّ طريق اللاعنف، وبفضل تأثير كنائس الزنوج، قد أصبح جزءاً عضوياً مِن كفاحنا.

إنني على قناعة بأنّه لو لم تبزغ هذه الفلسفة [اللاعنف] لكانت كثيرٌ من شوارع الجنوب تفيض بالدم الآن. بل أنا على قناعة بأنه إذا قام إخوانُنا البيضُ بنبذنا، نحن الذين نستخدم العمل المباشر اللاعنفيّ، بوصفنا «مثيري فتنٍ» و«محرّضين غرباء»، وإذا رفضوا دعم جهودنا اللاعنفية، فإنّ ملايين من الزنوج سوف يلجأون إلى عقائديات القوميين السود من أجل السلوان والأمن نتيجةً لإحباطهم ويأسِهم ـ وهذا تطوُّرٌ من شأنه حتماً أن يقود إلى كابوس عِرْقي راعِبٍ.

لا يمكن أن يبقى المُضطَهدون مُضطَهدين إلى الأبد، بل سوف يتجلى التوقُ إلى الحريّة في نهاية المطاف؛ وهذا هو ما حدث للزنجي الأميركي. فلقد ذكّره شيءٌ ما في داخله بحقه المكتسب (منذ الولادة) في الحريّة، وذكّره شيءٌ ما خارجه [لدى الأمم المختلفة] بأنّ ذلك يُمْكِن أن يُكسَب. وسواء عن وعي أو عن لاوعيٍ فقد أدركتْه روحُ العصر؛ وإنّ زنجيّ الولايات المتحدة ـ بمعيّة إخوته السّود في أفريقيا وإخوتِهِ السّمرِ والصفرِ في آسيا وأميركا وبلاد الكاريبي ـ ليَتَحركُ بشعور عارمٍ بالإلحاحية نحو أرض العدالة العرقية الموعودة. فإذا أدرك المرءُ أمرَ هذا الدافع الحيوي الذي يغمر منجمعَ الزنوج، فَهِمَ بيُسْرٍ لِمَ تجري التظاهراتُ العامّةُ الآن. إنّ لدى الزنجيّ الكثيرَ من مشاعر الاستياء المكظومة ومن الخيبات الكامنة، وعليه أن يفرّج عنها. لذا دعوه يَسِرْ في المسيرات؛ دعوه يذهبْ في رحلات حجّ إلى مقرّ البلدية؛ دعوة يذهبْ في رحلات حريّة[2] ـ وحاولوا أن تتفهمّوا لِمَ يجب عليه أن يفعل ذلك. فإنْ لم تنفرج عواطفُه المكبوتةُ بطرق لاعنفية، فسوف تسعى إلى التعبير عن ذاتها بالعنف؛ وهذا ليس تهديداً بل حقيقةٌ تاريخية. ولهذا أنا لم أقُل لشعبي: «تخلّصوا من سخطكم»، بل حاولتُ أن أقول إنّ من الممكن أن يوجّه هذا السخطُ الطبيعيُّ والسليم نحو المتنفّس الخلاّق للعمل المباشر اللاعنفي. والآن هاهوذا المسارُ [الذي أسعى إليه] يُسمّى تطرّفاً!

---

١ ـ «الوَعَث» هو المكان الليّن الذي تغيب فيه الأقدام، بحسب **المعجم الوسيط**. (م)

٢ ـ Freedom rides : رحلات كان يقوم بها عمّال ناشطون في حركة الحقوق المدنية في الولايات الجنوبيّة للتحقق من عدم وجود فصل عنصري في المرافق العامة. (م)

ولكنْ على الرغم من أنني أُصبتُ بخيبةِ أملٍ في البداية حين صُنِّفْتُ متطرِّفاً، فإنني بعد أن تابعتُ التفكيرَ في هذا الأمر رحتُ تدريجياً أحظى بقدرٍ من الرضا من هذا اللَّقب. ألم يكُن يسوع متطرِّفاً لصالح الحبّ حين قال: «أمّا أنا فأقول لكم أَحِبّوا أعداءَكم وأَحْسِنوا إلى مَنْ يبغضكم وصلّوا لأجل من يُعنِتُكم[1] ويضطهدكم»[2]؟ ألَم يكنْ عاموس متطرفاً لمصلحة العدل حين قال: «بل ليجرِ القضاءُ كالمياه، والعدلُ كنهرٍ لا ينقطع»[3]؟ ألم يكنْ بولس متطرفاً لمصلحة البشارة المسيحية إذ قال: «... فإني حاملٌ في جسدي سماتِ الرب يسوع»[4]؟ وألم يكن مارتن لوثر متطرفاً حين قال: «هذا هو موقفي، لا أستطيع خلاف ذلك، فساعدني يا إلهي»؟ وكذلك جون بونيان إذ قال: «أفضّل أن أبقى في السجن حتى آخر أيامي على أن أجعل من ضميري مسلخاً»؟ وأبرهام لينكن [لينكولن]: «لا يمكن أن تعيش هذه الأمةُ نصفُها عبيدٌ ونصفُها أحرارٌ»؟ وتوماس جيفيرسون: «إنّنا لَنَعُدّها من الحقائق الواضحة بذاتها أنّ جميع النّاس وُلدوا متساوين...»؟ ليس السؤال، إذنْ، عمّا إذا كنا سنُعْتَبرُ متطرفين، بل أيُّ نوعٍ من المتطرفين نكون؟ أنكون متطرفين للكراهية، أم للمحبة؟ أنكون متطرفين للحفاظ على الظلم، أمْ لنشر العدل؟ وفي ذلك المشهد المأساوي على جبل الجلجلة كان هناك ثلاثة رجال مصلوبين، وعلينا أن لا ننسى أبداً أنّ الثلاثة جميعهم صُلبوا للجريمة ذاتها ـ جريمة التطرف: اثنيْن كانا متطرفيْن بالفجور، فكانا أدنى من محيطهما؛ وأمّا الآخر، يسوع المسيح، فقد كان متطرفاً لصالح المحبّة والحقيقة والخير، فارتقى عن محيطه. فلعلّ الجنوب والبلاد والعالم في أمسّ الحاجة إلى المتطرفين الخلاّقين!

روزا پاركس، رفضتْ عام ١٩٥٥ التنازل عن مقعدها في الباص لراكب أبيض في مونتغمري، فاعتُقلتْ، وتفجرت حملةُ مقاطعة الباصات العمومي (١٩٥٥ ـ ١٩٥٦)

لقد كنتُ أمل أن يرى المعتدلُ الأبيضُ هذه الحاجة؛ وربما أفرطتُ في التفاؤل، فتوقّعتُ منهم أكثرَ ممّا ينبغي. أظن أنه كان عليّ أن أُدرك أنّ قلّة من أفراد العرق المضطهِد بإمكانها أن تفهم تأوّهاتِ العرق المضطَهَدِ العميقةَ وتطلُّعاتِهِ المشبوبة بالعاطفة، وأنّ عدداً أقل من ذلك لديهم ليروا أنّ على الظلم أن يُجتَثّ بالعمل القوي والمثابر والشديد العزم. ومع ذلك فأنا سعيدٌ لأنّ بعضاً من إخواننا البيض في الجنوب قد أدركوا معنى هذه الثورة الاجتماعية وكرّسوا أنفسهم لها. ورغم أنهم قلّة قليلة عدداً، فهم كبارٌ نوعاً، وبعضُهم ـ مثل رالف ماكجيل، وليليان سميث، وهاري جولدين، وجيمس ماكبيرو دابس، وآن برادن، وساره پاتون بويل ـ كتبوا عن كفاحنا بعبارات بليغة ومتبصّرة، وقام آخرون بالسيْر معنا في شوارع لا حصر لها في الجنوب، وقَبَعوا في سجون قذرةٍ موبوءةٍ بالصراصير وعانوا أذى ووحشيةَ رجال الشرطة الذين كانوا ينظرون إليهم بوصفهم «مُحبّي زنوج قذرين»، وهم ـ على عكس كثيرٍ من إخوانهم وأخواتهم من البيض المعتدلين ـ أدركوا إلحاحيّةَ اللحظة واستشعروا الحاجةَ إلى ترياقٍ قويٍّ من «العمل» [المباشر] لمحاربة مرض الفصل العنصري.

دعوني

أُشيرِ الآن إلى خيبة أملي الأساسية الأخرى. لقد خاب أملي بشدّة في كنائس البيض وقياداتها. هناك بالطبع بعضُ الاستثناءات المشرّفة، وأنا لستُ غافلاً عن حقيقة أنّ كلاً منكم اتّخذ مواقف بارزةً من هذه القضيّة. وأنا أُحييك أيها الكاهن الفاضل ستالنجر على وقفتك المسيحية المُشرّفة الأحدَ الماضي، حين رحّبتَ بالزنوج في الطقوس الدينية التي أقمتَها على قاعدة عدم الفصل العنصري. كما أُحيّي قادة الكاثوليك في هذهِ الولاية لإجرائهم الدمجَ العنصريَّ في كليّة سپرينج هيل منذ عدة سنوات.

---

١ ـ أعْنَتَهُ (بحسب **المعجم الوسيط**): أوقعه في مشقّة وشدّة. (م)

٢ ـ إنجيل متّى، ٥: ٤٤، من العهد الجديد. (م)

٣ ـ نبوءة عاموس، ٥: ٢٥، من العهد القديم. (م)

٤ ـ رسالة القديس بولس الى أهل غلاطيه، ٦: ١٧، من العهد الجديد. (م)

ولكنْ، وبالرغم من هذهِ الاستثناءات المشرّفة، فإنّ عليّ بصدق أن أكرِّر أنّ أملي قد خاب في الكنيسة. وأنا لا أقول هذا كواحدٍ من أولئك المنتقدين السلبيين الذين يجدون على الدوام خطأً مّا في الكنيسة، وإنما أقوله بوصفي قَسّاً إنجيلياً يحبّ الكنيسة ونشأ في وسطها وتقوّى ببركاتها الروحية وسيبقى مخلِصاً لها ما استطال حبلُ العمر.

حينما رُقّيتُ فجأةً، وقبل بضعة سنوات، إلى قيادة العمل الاحتجاجي على ركوب الباصات في مدينة مونتغُمري في ولاية ألاباما [بسبب استخدامها أسلوب الفصل العنصري بين الركّاب]، ظننتُ أننا سنلقى الدعم من كنائس البيض، وظننتُ أنّ الكهنة والقُسس والحاخامات البيض في الجنوب سيكونون من بين أقوى حلفائنا. ولكنْ بدلاً من ذلك، كان بعضُهم معارضين تماماً، ورفضوا تفهُّم الحركة التحررية، وشوّهوا [أفكار] قياداتها. وأما كثرتهم الباقية، فقد التزموا جانب الحذر أكثرَ من التزامهم الشجاعةَ، وظلّوا صامتين خلف الأمن المُخدِّر لزجاج شبابيكهم المُعتم.

ولكني جئتُ الى بيرمينجهام، بالرغم من أحلامي المحطمة، آملاً في أن تدرك قيادةُ هذا المنجمع الدينيةُ البيضاءُ عدالةَ قضيتنا، وأن تقوم ـ وباهتمام أخلاقي عميق ـ بالعمل قناةً تُمكّن مظالمنا العادلةَ من الوصول إلى هيكل السلطة. وكنتُ آمل أن يتفهّم كلُّ واحدٍ منكم الأمرَ، ولكني أصبتُ من جديد بخيبة أمل.

لقد سمعتُ عدداً كبيراً من القادة الروحيين الجنوبيين يحثّون رعاياهم على أن يُذعنوا لأحد قراراتِ الدَّمج العنصري لأنه من القانون، ولكني ثُقتُ إلى أن أسمع كهنةً بيضاً يُعلنون أنِ: «اتّبِعوا هذا القرار لأنّ الاندماج هو الصواب من الناحية الأخلاقيّة، ولأنّ الزنجي هو أخوكم». ووسط هذا الظلم الصارخ المفروض على الزنوج شاهدتُ رجالَ كنيسةٍ بيضاً يقفون موقفَ المتفرِّج ويتشدّقون بأمورٍ منافقةٍ لا شأن لها بما يحدث، وبتفاهاتٍ تتلبّس لبوسَ التقوى. ووسط هذا الكفاح العظيم لتخليص أمتنا من الظلم العرقي والاقتصادي، سمعتُ كثيراً من الكهنة يقولون: «تلك قضايا اجتماعية وليست للدين علاقةٌ فعلية بها». كما راقبتُ الكثير من الكنائس تكرّس ذاتها لدينٍ بعيد عن هذا العالم تماماً، دينٍ يفصل فصلاً غريباً ولاإنجيلياً بين الجسدِ والروح، والمقدّس والدنيويّ.

لقد جُلتُ في ألاباما، والمسيسيبي، وفي كلّ الولايات الجنوبية طولاً وعرضاً. وفي أيام الصيف القائظة وصباحات الخريف المنعشةِ [البرودة]، كنتُ أنظر إلى كنائس الجنوب الجميلة بأبراجها السامقة تشمخ في السماء، وعاينتُ الأشكال المؤثّرة للمباني الدينية والتربوية الضخمة، وكنتُ أجدني أتساءل المرّةَ تلوَ المرة: «أيُّ نوعٍ من الناس يَتَعبّد هنا؟ ومن هو إلههم؟ أين كانت أصواتُهم حين قَطرتْ شفاهُ الحاكم بارْنتّ بكلمات الاعتراض والإبطال [إبطال قانون الولايات القاضي بالدمج العنصري]؟ وأين كانوا عندما دعا الحاكم والاس دعوةً واضحةً وجهيرةً إلى تحدي القانون وإلى الكراهية؟ أين كانت أصواتُهم الداعمة حين قرّر الرجالُ والنساءُ الزنوج المكدودون والمنهَكون النهوضَ من زنازين اللامبالاة المظلمة إلى تلال الاحتجاج الخلاّق الوضّاءة؟»

نعم، تلك الأسئلة لا تزال في ذهني، وكنت قد بكيتُ، وبخيبة أمل عميقة، بسبب تراخي الكنيسة. ولكنْ ثقوا أنّ دموعي كانت دموع مَحَبّةٍ، إذ لا يمكن أن تكون هناك خيبةُ أملٍ عميقةٌ دون أن يكون هناك حبٌ عميق. أنا أحبّ الكنيسة، وكيف لي أن لا أحبّها؟ بل أنا في وضع فريد، لكوني ابناً وحفيداً وابنَ حفيدٍ لكهنة. نعم، أنا أعتبر الكنيسة جسداً للمسيح. ولكنْ آهٍ كم شَوّهْنا وجَرّحْنا ذلك الجسدَ بالإهمال الاجتماعي، وبالخوف من أن نصبح منشقّين [غيرَ ملتزَمين بأعرافِ الكنيسة]!

لقد مضى زمنٌ كانت الكنيسةُ قويةً فيه ـ حين كان المسيحيون الأوائل يبتهجون لاستحقاقهم العذابَ على ما يُؤمنون به. في تلك الأيام لم تكن الكنيسةُ مقياسَ الحرارة الذي يقيس أفكارَ الرأي العام ومبادئه فحسب، بل كانت أيضاً منظِّمَ الحرارة الذي حوّل أعرافَ المجتمع. وكلّما دخل المسيحيون الأوائل بلدةً، أصيب الناسُ في السلطة بالقلق وسعوْا من فورهم إلى إدانة المسيحيين باعتبارهم «معكّرين للأمن» و«محرّضين غرباءَ». ولكنّ المسيحيين تابعوا طريقهم، راسخين على إيمانهم بأنهم «جماعةٌ من الفردوس» دُعيتْ إلى طاعة اللّه لا طاعةِ الإنسان. ورغم أنهم كانوا قلّة، فقد كانوا كباراً في التزامهم. كان انتشاؤهم باللّه أعظم من أن [يرضخوا] «للتهديد الجسيم». وبجهدهم، وبالمثال الذي جسّدوه، وضعوا نهايةً لشرورٍ قديمةٍ، كقتل الأطفال ومصارعة المجالدين[1].

---

١ ـ المُجَالِد: عَبْدٌ او اسير كان يُقاتِلُ حتى الموت من أجل إمتاع الناس [في روما القديمة]. (م)

ولكنّ الأمور تختلف الآن. فالكنيسة المعاصِرة، وفي الأغلب، صوتٌ خفيف وغيرُ ذي أثر، ورسالتُها غيرُ واثقة، وغالباً ما تكون المُدافعَ الرئيسيَّ عن الوضع الراهن. وأما هيكل السلطة للمنجمعات العادية فإنّ وجودَ الكنيسة لا يقضّ مضجعَهُ البتّةَ، وإنّما هو يتواسى بإقرارها الصامت ـ بل الصريح في كثير من الأحيانِ ـ للوضع القائم.

غير أنّ [تنفيذ] حكم الله يقع اليومَ على الكنيسة أكثرَ من أيّ وقت مضى. وإذا لم تُعِد الكنيسةُ اليومَ التقاطَ روح التضحية التي كانت تملكها الكنيسةُ القديمة، فإنها ستفقد صدْقيتها وتفقد ولاء الملايين، وستُنْبَذ بوصفها نادياً اجتماعياً لا علاقة له بالأحداث ولا معنى له للقرن العشرين. وأنا ألتقي في كل يوم شباباً انقلبتْ خيبةُ أملهم في الكنيسة اشمئزازاً صريحاً.

لعلّي أفرطتُ في التفاؤل من جديد. أيكون الدينُ [المُمَأْسَس] من الارتباط الذي لا فكاك منه بالوضع الراهن بحيث لا يمكنه إنقاذُ الأمّة والعالم؟ لربّما كان عليّ أن أتحوّل بإيماني إلى الكنيسة الروحية الداخلية، إلى الكنيسة داخل الكنيسة، بوصفها الكنيسةَ النقيةَ الحقيقيةَ وأملَ العالم. ولكنني أكرر القول إنني أشكر الله لأنّ بعضاً من ذوي الأرواح النبيلة من فئات الدين النظامي قد تحرّروا من أغلال الخضوع الشالّةِ وانضمّوا إلينا شركاءَ نشطين في الكفاح من أجل التحرر. لقد تركوا محافلهم الآمنة، وساروا معنا في مدينة ألْبَني في ولاية جورجيا، وذهبوا معنا على طرقِ الجنوب السريعة في رحلاتٍ عرّجوا فيها على كلّ الأمكنة من أجل الدعوة إلى التحرر. بل إنّهم، نَعَم، ذهبوا معنا إلى السجن، وطُرد بعضُهم من كنائسهم، وفَقَدوا تأييد أساقفتهم وزملائهم الكهنة، ولكنّهم تصرّفوا بناءً على إيمانهم بأنّ الصواب المهزوم أقوى من الشر المنتصر. وكان وجودُهم ملحَ الروح الذي حفظ المعنى الحقيقي للإنجيل في تلك الأوقات العصيبة، وشقّوا نفقاً من الأمل في جبل الخيبة المظلم.

جيمس ميريديث اول طالب جامعي اسود في جامعة المسيسبي عام ١٩٦٢ بعد قانون الدمج العنصري، وقاد تظاهرة منفرداً عام ١٩٦٦ فاطلق عليه النار

إنني لآملُ أن تواجه الكنيسةُ بمجملها تحدي هذه الساعة الحاسمة. ولكنْ حتى لو لم تَنْهض الكنيسةُ لنصرة العدل، فإنني لن أيأس في المستقبل، ولستُ بخائفٍ على حصيلة كفاحنا في بيرمينجهام حتى لو أُسيء فهمُ دوافعنا في الوقت الحاضر. ولسوف نصل إلى هدفنا في التحرر في بيرمينجهام وفي كل البلاد، لأنّ هدف أميركا هو التحرر. ومهما كُنّا مظلومين ومُحتقَرين، فإنّ مصيرنا مرتبطٌ بمصير أميركا. فقبل أن يصل المهاجرون الأوائل الى پليموث[1]، كنّا هنا؛ وقبل أن يخطّ قلمُ جيفرسون الكلماتِ العظيمةَ لإعلان الاستقلال على صفحات التاريخ، كُنّا هنا. ولقد كدح أسلافنا في هذا البلد ما يزيد عن قرنين، وبدون أجرٍ، فصنعوا ملوك القطن، وبنوا بيوتَ أسيادهم، بينما راحوا هم يعانون الظلمَ الفادح والإذلال المُخزي. ومع هذا واصلوا تطوّرهم وازدهارَهُم، بفضل حيويتهم التي لا حدّ لها. فإذا لم تتمكن العبوديةُ، بوحشيّتها التي لا توصف، من إيقافنا، فإنّ المعارضة التي نواجهها الآن ستُخفِق حتماً. وسنحقق تحرّرنا لأنّ تراث أمتنا المقدّس وإرادة الله الأبدية متجسّدان في مطالبنا المُتكرّرة.

وقبل الختام أشعر بأنني مجبَرٌ على أن أشير إلى نقطة أخرى في بيانكم، أثارتْ فيَّ قلقاً عميقاً. فلقد حيّيْتُم بحرارةٍ قواتِ شرطة بيرمينجهام لحفظها «النظامَ» و«لمنعها العنفَ». وأنا أشكُّ في أنكم كنتم ستحيّون قوات الشرطة بهذه الحرارة لو شاهدتم كلابَ الشرطة تغرس أسنانها في أجساد زنوج مسالمين عزّل. وأشكّ أنكم كنتم ستحيّون رجال الشرطة بمثل هذه السرعة لو قُدِّر لكم أن تشاهدوا معاملتهم البشعة واللاإنسانية للزنوج هنا في سجن المدينة، أو لو قُدِّر لكم أن تشاهدوهم وهم يَدْفعون ويشتمون النساء الزنجيات المسنّات والبنات الزنجيات اليافعات، أو لو قُدِّر لكم أن تروهم يَصْفعون ويَرْكلون الرجالَ الزنوجَ المسنّين

١ ـ صخرة پليموث: المكان الذي حطّ فيه أوّلُ مركبٍ للمهاجرين إلى الولايات المتحدة (عام ١٦٢٠) ويقع في ولاية ماساتشوسيتس. (م)

والأولادَ الصغار، أو لو قُدِّر لكم أن تراقبوهم وهم يمنعون عنّا الطعام [في السجن] لأننا أردنا أن نرتّل تراتيلَ الصلاة معاً (ولقد فعلوا ذلك بنا مرتين). أنا لا يمكنني أن أنضمّ إليكم في ثنائكم على دائرة الشرطة في بيرمينجهام!

صحيح أنّ رجال الشرطة مارسوا حدّاً معيناً من الانضباط في التعامل مع المتظاهرين، متصرفين ـ من هذه الناحية ـ بطريقةٍ لاعنفيّةٍ إلى حدٍّ ما أمام الملإ. ولكنْ ما كان هدف ذلك؟ أن يحفظوا نظام الفصل العنصري الخبيث! لقد كنتُ أَعِظ خلال السنوات القليلة الماضية بأنّ اللاعنف يتطلّب أن تكون الوسائلُ التي نستخدمها نقيةً نقاءَ النتائج التي نسعى إليها، كما حاولتُ أن أُوضح بأنه من الخطإ استعمال وسائل لاأخلاقية لتحقيق نتائج أخلاقية. ولكن عليّ الآن أن أؤكّد أنّ من الخطإ أيضاً، بل لعلّه أن يكون خطأً أشد، أن نستخدم وسائلَ أخلاقيةً للحفاظ على نتائج لاأخلاقية. فلربما كان السيد كونر ورجال شرطته غير عنيفين أمام الملإ إلى حدٍّ ما، وهو ما كان عليه المفوّض بريتشيت في مدينة ألبَني في ولاية جورجيا، ولكنهم استخدموا وسائل اللاعنف الأخلاقية من أجل الإبقاء على أهدافهم اللاأخلاقيّة في الظلم العرقي. وكما قال ت.س. ايليوت: «الإغواء الأخير هو الخيانة العظمى: أن تفعل الأشياء الصحيحة للأسباب الخاطئة».

كنت أتمنى لو حيّيتم [في بيانكم] الزنوجَ المعتصمين والمتظاهرين في بيرمينجهام لشجاعتهم السامية واستعدادهم للمعاناة وانضباطهم المدهش أمام الاستفزازات الهائلة. ويوماً ما، سيعترف الجنوبُ بأبطاله الحقيقيين الذين سيكونون مثل جيمس ميريديث[1] بشعورهم الهدفي النبيل الذي يمكّنهم من مواجهة الرّعاع الساخرين والعدائيين، وبمشاعر الوحدة المعذِّبة التي طَبَعتْ حياة الروّاد. وسيكون أبطالُ الجنوب الحقيقيون أيضاً نساءً زنجياتٍ مسنّاتٍ مضطَهداتٍ مسحوقاتٍ، تُمَثِّلهنّ امرأةٌ عجوز من مونتغمري في ولاية ألاباما، تبلغ من العمر اثنيْن وسبعين عاماً، وقد نهضتْ بحسٍّ من الكرامة عالٍ وقرّرتْ مع شعبها ألاّ يركبوا الباصات التي تطبّق التمييزَ العنصري؛ وحين سألها سائل عن إرهاقها أجابتْ دونما فصاحةٍ نحوية: «قدماي يؤلم، ولكن روحي مرتاح»[2]. وسيكون أبطالُ الجنوب الحقيقيون أيضاً طلابَ الثانويات والكليات اليافعين، وكهنةَ الإنجيل اليافعين، وثُلّةٌ من شيوخ الكنائس، الذين جلسوا بشجاعة ودونما عنفٍ على طاولات المطاعم مستعدين للذهاب إلى السجن من أجل راحة ضميرهم. ويوماً ما سيعرف الجنوبُ أنه حين جلس أبناءُ الله المحرومون هؤلاء على طاولات المطاعم، كانوا في الواقع يدافعون عن أحسن ما في الحلم الأمريكي، وعن أقدس القيم في تراثنا اليهو-سيحي؛ وبذلك كانوا يعيدون أمتنا إلى آبار الديموقراطية التي حُفرتْ عميقاً على يد الآباء المؤسسين بصياغتهم للدستور وإعلانِ الاستقلال.

لم يسبق لي قطُّ أن كتبتُ رسالةً بهذا الطول، وأخشى أن تكون من الطول بحيث تستغرق وقتكم الثمين. وأستطيع أن أؤكّد لكم أنها كانت ستكون أقصر كثيراً لو كنتُ كتبتُها من على مكتبٍ مريح. ولكنْ ما عسى المرء يفعل حين يكون وحيداً، في زنزانةِ سجنٍ ضيقةٍ، إلا أن يكتب رسائل طويلة ويفكّر أفكاراً طويلة ويصلّي صلواتٍ طويلة؟

إذا كنتُ قد قلتُ في هذه الرسالة ما يضخّم الحقائقَ ويشير إلى فراغ صبرٍ لا مسوِّغ له، فأرجو منكم الصفحَ. وإذا كنت قد قلتُ ما يخفّف من وقع الحقيقة ويشير إلى أنني أملك صبراً يتيح لي أن أَقْبل بما هو أقلُّ من الإخاء، فأرجو من الله الصفحَ.

أتمنى أن تصلكم هذه الرسالةُ وأنتم أقوياءُ في إيمانكم، وأتمنى أيضاً أن تَسْمح لي الظروفُ قريباً بأن ألقى كلَّ واحدٍ منكم لا بوصفي من دعاةِ الدمج العنصري أو من قادة حركة الحقوق المدنية بل بصفتي كاهناً زميلاً لكم وأخاً مسيحياً. دعونا نأملْ جميعاً أن تنزاح غيومُ التمييز العرقي الداكنة، وينْقشعَ ضبابُ سوءِ التفاهم عن منجمعاتنا الغارقة في الخوف، وتشعَّ في غدٍ ليس ببعيدٍ نجومُ المحبّة والأخوّة المتلألئة بكل جمالها المتألق على أمتنا العظيمة.

لأجل قضية السلام والأخوّة، المخلص لكم

مارتن لوثر كنغ جونير

---

١ ـ هو أوّل طالب أسود يلتحق بجامعة الميسيسيبي بعد أن صدر قانونٌ فدرالي يُجبر الجامعات في الولايات المتحدة على تطبيق الدمج العنصري، ولكنّه تعرض لمضايقات الطلبة البيض في الجامعة فَحَمَتْه قواتُ الشرطة حتى تخرُّجه عام ١٩٦٣. ومنذ ذلك الوقت أصبح أحدَ الرموز النضالية في حركة تحرر السود في أميركا. (م)

٢ ـ «my feets is tired, but my soul is at rest» في النص الأصلي، تجافي كلمات تلك المرأة قواعدَ اللغة الإنجليزية، فآثرنا نقل كلامها إلى العربيّة بكلامٍ يجافي هو الآخر قواعدَ لغتنا. (م)